أحمد زكي أبو شادي

شعره في ديوان الشعلة

محاضرة الشاعر الكبير

الاستاذ احمد محرم

في نادي رابطة «الأدب الجديد» بالقاهرة

١٩٣٣

مطبعة حجازي
بجوار قسم الجمالية بالقاهرة
تليفون ٥٥٤٨٠

أحمد زكى أبو شادى

شعره فى ديوان الشعلة

محاضرة الشاعر الكبير

الاستاذ احمد محرم

فى نادى رابطة « الأدب الجديد » بالقاهرة

١٩٣٣

مطبعة حجازى
بجوار قسم الجمالية بالقاهرة
تليفون ٥٥٤٨٠

الطبعة الأولى
يولية سنة ١٩٣٣

الثمن عشرون مليماً

تصدير

نشطت « رابطةُ الأدب الجديد » بالقاهرة هذا العام نشاطاً تُغبط عليه ، فوجهت اليها أنظارَ الأدباء والمتأدبين وارتاحوا الى هذه الحركة المباركة والعناية الجليلة التى وجهتها نحو دراسة المؤلفات القيمة الحديثة لمشاهير شعرائنا وكتابنا :

وكانت محاضرة الشاعر الكبير الأستاذ أحمد محرم عن ديوان « الشعلة » أحدث دواوين الشاعر الوجدانى المتفنن الدكتور أبى شادى احدى المحاضرات التى ألقيت فى نادى « الرابطة » .

ورأت لجنة تحرير مجلة « أپولو » أن هذه المحاضرة لا يتسع المجال لها فى المجلة وإن تكن متخصصةً لخدمة الشعر ، وليس من المناسب تجزئتها على أعداد . فرأت إصدارها على حدة تقديراً لفضل المحاضر . وقمتُ بتصديرها بكلمة وجيزة عن الأستاذ احمد محرم الذى نلمح فى نقده الروحَ الصافى ، وكان مضرب المثل فى ضبط النفس وتوخى الانصاف واستقصاء الحسنات ، والتنبيه فى لباقة وهدوء إلى الأوهام والأخطاء ، وكانت نقداته للسيد توفيق البكرى ولمحمد حافظ ابراهيم ولغيرهما من اعلام الشعر العربى موضوع اهتمام الأدباء والمتأدبين وتقديرهم . وكانت الى جانب ذلك القدوة العليا فى النقد وتنزهه عن الغايات .

وانى لأذكر أنه منـــــذ أعوام كانت تقوم فى البيئات

الأدبية مفاضلات بين شعر المرحوم شوقى بك وشعر الأستاذ محرم ، وفى الحق ان أنصار شاعرنا محرم كانوا على كثير من الحق حين أقاموا هذه الدعوى ، فان بين شوقى ومحرم علاقة قوية وتقارباً بيناً : فقد امتاز شعر شوقى بموسيقيته العذبة الموهوبة وهذه الميزة هى التى تجدها فى شعر محرم ، ولست مغالياً اذا قلت إنها لن تفارق لفظاً من ألفاظه ، فانى لأقرأ البيت من شعر محرم فأحس كأن صدى أنغام عذبة تطوف على خاطرى فى حلم جميل .

وإلى جانب هذه الموسيقى التى يتساءل عنها فى قصيدته « وجودى » والتى يحس تأثيرها فى أنفس قرائه فيقول :

أمن أدبى تبيت الطير تبكى ؟ فما أدبى ؟ أشدوٌ أم رنينُ ؟

تتجلى تلك الديباجة العالية وتلك الجزالة السامية التى يقدرها فيه أدباؤنا . ولن أكون إلا محقاً حين أقول إنه كان يمتاز على المرحوم حافظ ابراهيم فى الرنين العذب الذى صحب شعره الناضج ولازمه ، إلا أن مرض الشرق الذى يظمىء الفنان الموهوب وإلا الالتفات الدائم الى صوت

أوصوتين دون أن يُلتفت إلى بقية الأوتار الجميلة التى تؤلف أنشودة الخلود حالا دون التقدير الكافى لشاعرية احمد محرم ، ولولا هذا المرض ما سمعنا محرم يشكو حين يحسّ الحيرة فى وجوده فيقول :

ظمئتُ ، وفى فمى الأدبُ المصفى
وضِعتُ ، وفى يدى الكنز الثمينُ
ظلمت أبى ونفسى ، إن مثلى
لغالٍ فى النوابغ لا يهون
كريم تدفع الأخلاق عنه ويمنع ركنه الأدب الحصين
أقول فيفزِع الشعراء صوتى وما أنا فى بنى وطنى ظنين
لربى ما عملت ، وعند قومى ديونى ، حين تلتمس الديون

نعم عند قومك هذا الدين ، وسيوفَّى دينك ، وستظل كما تقول :

أشدّ على الفنون يدى ، وانى لفى زمن جهالته فنون !

وإنى لأرى أمامى مشهداً لم تضعف ريشة محرم فى رسمه ، ولم ينقصها لون حين صوّر الحائر ، فقال :

وجودى ما عرفتك غير معنى تغلغل فى الخفاء ، فما يبين

غريق فى الظلام ولامغاصٌ ولا جسر يلاذ به أمين
أقيمَ عليه سور من عباب تضل على جوانبه السفين
أُطِلُّ، ويضرب التيار وجهى فأين أنا ؟ أحر أم سجين ؟

وأضل أنا أيضاً فى عالم الاعجاب حين أقرأ له من قصيدته « من همومى » :

بين عينىَّ وما حولهما صحف منشورة للقارئينْ
يعطف السطر على السطر كما
يعطف الباكى على الباكى الحزينْ !

* * *

هذه هى لمحة قصيرة عن محرم يثبتها هنا أحد المعجبين بأدبه ، ممن يسمونهم ثائرين على الأدب القديم الذى يحرص عليه محرم كقائد عظيم. وانى لأعجب بقوله حين يقيد الأدب الحديث بأنه « زيادة فنية تعطى صوراً معنوية جديدة وتخرج مزاجاً أدبياً صالحاً » ، الا أننى أسأله : لماذا لا يرى فى مذهب الشعر الجديد من عناصر القوة والخلود ما يراه القائمون به والعاملون لنشره كما يقول فى محاضرته ؟

وأرى الأستاذ المحاضر لا يشجع الأسلوب الرمزى الذى

يُعدّ الدكتور أبو شادى مبرزاً فيه ، وأراه فى حيرة من قول أبى شادى :

عُودى الى ظل المساء فنلتقى روحين للدنيا بغير رقيب
نمشى على أرض من الأحلام لم تبسط لغير الحسن والتشبيب

وقوله أيضاً :

قد رشفنا مُنى الحياة بثغر وارتوينا من اللهيب المقدسْ

ويعجب من أن منى الحياة مما يرشف ، واللهيب المقدس مما ينقع الصدى ويطفىء الغليل . . . مع أن الأستاذ محرم اذا ترك نفسه على سجيتها ولم يلتفت ناحية المحافظين وجدناه من أصحاب الأسلوب الرمزى وسمعناه يقول : « تمل الألفاظ مرح المعانى » ، وكم فى هذه الجملة من صور شعرية جديدة !

على أن الذى يملأ نفسى إعجاباً وطمأنينة برسالة الأدب الحديث ذلك التقدير الصادر عن نفس صافية وروحٍ سامٍ من شاعرٍ يفخر بالأدب الكلاسيكى لشاعرٍ مجدّدٍ موهوبٍ مؤمنٍ بفكرته مخلصٍ لرسالته .

واذا كان لجمعية « أپولُو » أن تُعنى بتيسير اطلاع الأدباء على هذه المحاضرة تامةً فانها فى الوقت عينه ليسرها أن تذيع للناس نموذجاً من النقد الحق الخالص للفنّ ، المعبر عن نفس قائله أجملَ تعبير ؟

حسن كامل الصيرفى

القاهرة فى ٤ أغسطس سنة ١٩٣٣

أحمد زكي أبو شادي ✿

شعره في ديوان الشعلة

تمهيد

إلى هذا الجمع المثقف والجمهور المستنير أُزلف تحيتي وشكري ، ومن حقي وحق كل فرد من الأسرة الأدبية الفاضلة أو المجموعة الراقية التي تحب الأدب وتعرف ما له من مقام عالٍ ومنزلة رفيعة أن نبتهج بهذا البعث الأدبي الجميل ، وأن نستبشر بهذا القبس العلوي الذي يكشف لنا عن مواهب فنية عالية ، وعبقريات أدبية عظيمة طَغَت عليها عواصفُ الحياة المادية العاتية ، واضطهدتها الثقافات الخاطئة فأصيبت في عظمتها ، واختفت أو كادت تختفي تحت ركام غير محدود من الجهالات والأهواء ، بين الأدب والمادة

بمعناها المعروف فى عصرنا هذا ، عراك قديم ، وخصومة شديدة ، ولكن التاريخ يحدثنا أن هذه المادة لم تبلغ من الفجور والكفران برسالة الأدب فى أى عصر من العصور مابلغت فى عصرنا هذا ، وفى بيئتنا هذه . هى تحتقره فى غير حياء ، وتقاتله فى غير رفق ولا هوادة ، وهى إذا سئلت عن داعية هذه الحرب الفاجرة قالت فى غير مبالاة : إن ملاك الحضارة الذى يقبض اليوم على العالم بيده الذهبية الضخمة يجد فى الاصحاح الأول من انجيله أن الأدباء والشعراء هم أشد الناس كفراً بدين العمران ، وشريعة الحياة وأن رجلا واحداً أو آلةً صغيرةً فى مصنع خير من ألف شاعر وشاعرة .

كذبت المادة ، وضل شيطانها الخاسر ضلالاً كبيراً ، انها لغبية مفتونة ، وإنكم لترون جناياتها العظمى فى عصر طغيانها . أليس هذا الظلام الصاخب الذى ابتلع العالم بأسره من صنع يدها الأثيمة ؟ أنسيتم صراخها وهى تبكى متضرعة ، وتجفل مذعورة من ضربات الحرب العامة ، تستغيث فى حمى الأدب ، وتشكو السيف والمدفع الى القلم ؟ ! أنسيتم تلك الدموع الحارة تسلطها على القلوب ، عسى أن ترق ،

وتسددها الى العواطف ، لعلها أن تلين و تشفق ؟ أنسيتم شعرَ اللئيمة ، وقصيدة الفاجرة ؟ ياوَيلها ـ انها ما انتصرت الا بموسيق هذا الشعر . ولانجحت الا بأنغام هذه القصيدة !

ذلك شأن المادة تقاتل الأدب . فأما الثقافات الخاطئة تضطهده ، و تجهدأن تذِله و تغمره ، أماهذه الثقافات الجاهلة ، الثقافات الغبية المقفرة من كل معانى النبل وعناصر الشرف ، فهى صورة من العلم المريض والمعرفة الجرباء ، صورة من الأثرة والحقد ، والخبث والضعة ، صورة من جنون الزمن ، ومجون المقادير ، ولكن ماذا عسى أن تفعل ؟ ان الأدب لناهض ، وانه لحى متصرف ، هو دائم القوة ، قائم السلطان .

* * *

شخصية أبى شادى

الدكتور زكى أبو شادى أديب كبير ، وشاعر مبتدع ، واسع الشهرة ، بعيد مدى الصيت ، يشغل فى صميم الحركة الأدبية الحاضرة محلاً رحباً ، ومكاناً فسيحاً ، ولست بمسرف فى وصفه اذا قلت لكم إن الدكتور أباشادى حركة أدبية

شديدة اليقظة ، دائمة النشاط ، تشغل قسماً كبيراً فى موسوعاتنا الفكرية ، وتحتل منطقة ممتازة من مناطق حياتنا العقلية ، فنحن حين نكبر هذه الحركة أو نشيد بذكرها ، لا نفعل شيئاً من ذلك تطوعاً أو مجاملة ، ولكنا نفعله ونفوسنا مأخوذة بقوة قاهرة ، وسلطان كبير . رُزِق الدكتور أبو شادى نفساً ثائرة ، وذهناً صافياً ، بينهما عقل جامع ، يتسع محيطه فى اتزان ، وتترامى جوانبه فى غير اضطراب ، فهو منظومة فنية على جانب عظيم من الروعة والجلال ، بل هو فى ذاته مصنع كبير من أجلّ وأعظم مصانع الفن الأدبى الذى يتأهب اليوم لغزو العقول والأفكار واحتلالها تحت لواء النهضة الأدبية الحديثة ، وبقوة الأسلحة الجديدة التى يسرف أبناؤنا وتلاميذنا فى اتخاذها ، وهم يرون كبريات دول الأرض وممالك العالم تئن من ويلات الحرب وتلح فى المطالبة بتخفيض السلاح .

لسنا نخشى على مملكتنا الأدبية شراً ، وما نحن بمناشدين هؤلاء الغزاة الكرام حقاً أو رحماً ، فليتقدموا راشدين ، وليقذفوا بكل قواهم وأسلحتهم فى هذه الميادين . ان سياستنا

الأدبية واضحة ، وهي قائمة على عظمة الفن ، وفلسفته الأبدية الخالدة ، وستموت بقية الشيوخ ، وتخلو المملكة لهؤلاء ، ولكن لا يظنن أحد أنا كغيرنا من الناس خاضعون لسلطان الموت ! — انا أشد مانكون قوة وعملا اذا استرحنا في قبورنا ، فنحن كمن يخرج من النافذة ليعود بعد قليل من الباب ، وهل كان أشياخنا الأولون ، أبوتمام ، والبحترى ، ومسلم بن الوليد ، والمتنبى ، وغيرهم أحياء يمشون على الأرض وهم يؤدون الينا والى غيرنا من السابقين رسالة الأدب فنحملها ، ويدفعون بميراثهم العظيم بين أيدينا فنضطلع به ، ونقوم عليه ؟

إنَّ لنا لخلفاء صالحين من أبنائنا ، وليس ببعيد أن يكونوا من أفراد هذه المجموعة الناهضة التي يقال إنها ثائرة علينا ، وليس المقام بمتسع فنفيض فى شأن التجديد الأدبى وشُبهته ، ونبين ماينبغى أن يكون له من الحدود والضوابط ، وحسبنا أن نقيده بقولنا : إنه زيادة فنية تعطى صوراً معنوية جديدة ، وتخلق مزاجاً أدبياً صالحاً .

الدكتور زكى أبو شادى من أكبر أعلام هذه النهضة

الأدبية الجديدة ؛ فهو يغذيها بنشاط عجيب ، ويسير فى طليعتها باقدام نادر ، وشجاعة لامثيل لها ، وهى تستأثر بقسم كبير من حياته الموزَّعة على مجموعة غير قليلة من الأعمال والشئون ، وتتحكم فى جانب عظيم من قوته التى تتناهبها عوامل شتى وشواغل كثيرة ؛ وهذه مؤلفاته الكثيرة العدد المختلفة المواضيع تحدثنا بأفصح لغة وأوضح بيان عن تلك القريحة الخصبة وذلك الشعور الأدبى الفياض اللذين يلتقيان فى نفسه الدائمة الهبوب والاشتعال ؛ ويتعاونان على تأدية أغراضه وبثِّ أفكاره .

وفى صديقنا الدكتور سجية غريبة ؛ وخلق غير مألوف : فهو يتعرض للنقد ، ويحرّض عليه ، ولا يرضى منك بكلمة التقريظ تكتبها عن أثر من آثاره ، أو مؤلف من مؤلفاته ! تلك ولا ريب من أديبنا الكبير ظاهرة جديدة فى الأدب ، وبدعة ما لنا بمثلها من عهد ، وإنما نحن قوم نحب الملق ؛ ونعشق الثناء ، وما النقد عندنا إلا صورةٌ من الحقد ، ومعنى من العداوة ؛ وقَلّ أن نجمع بين كلمة أحسن ، وكلمة أساء ،

وإنما يفعل صديقنا الدكتور ذلك ليعلمنا فضيلة الشجاعة ، ويروّضنا على الحرية والنزاهة ، وإنه ليكشف لنا من حيث ما لا يريد عن ذلك المعنى الدقيق الخاص به . ذلك هو إخلاصه للفن وإيثاره إياه على نفسه ، وما لى أفصل بين فن الدكتور ونفسه ، وقد اختلط بها ، واختلطت به ، فهما كلٌ متصل ، ووحدة متماسكة ؟ ! إنا لنرى هذا ونعرفه فى كل ما تتذوّق من شعره ، ولكم أن تؤمنوا بذلك فى غير قلق ولا تردد .

* * *

ديوان الشعلة

آخر ماظهر من الآثار الشعرية لصديقنا الدكتور (ديوان الشعلة) وقبل أن نتناول مايسعه المقام من موضوعات هذا السفر الفنى النفيس لا نرى بداً من أن نزيد ما ذكرناه عن طريقة الدكتور وإخوانه أهل المذهب الشعرى الجديد إيضاحاً ، فنحن لانتصر هذا المذهب على اطلاقه ، ولا نرى فيه من عناصر القوة والخلود مايراه القائمون به ، والعاملون لنشره ، ولكننا لانرى مانعاً من دراسته وتتبع سيره ، بل نحن نرى حقاً علينا أن نُقبل على مواضع الاحسان منه

إقبالنا على كل مانستحسن من بدائع الفن الشعرى ، وأن نؤمن فوق ذلك بأنا مكلفون أن نذيع مايقع فى نفوسنا من عمل هذه المستحسنات ، فعلى هذه القاعدة ، وفى حدود هذا المذهب الذى ارتضاه صديقنا الدكتور ودأب عليه ، نقول كلمتنا فى ديوانه (الشعلة) ، على أننا إذا نظرنا الى شعره رأيناه غير منقطع الصلة بالقديم كل الانقطاع ، فالدكتور يعرف لهذا القديم حرمته ، ويتأثر بما فيه من روعة ، وبما له من جلال ، ولكنه من فتنته الأدبية التى استولت على عقله ونفسه ، وجرت فى عروقه مجرى الدم ، لايكاد يقنع من هذه الصور الشعرية الا بالجديد المبتكر ، فهو مولع أبداً بهذا الجديد المبتكر ، يروض نفسه عليه ، ويطالب به سواه ، ولولا أن يقال تعجل للقبته (بالشعر المفتن) فانى لأرجو أن يلقب قريباً (بالشاعر الفتان) .

فى هذه الشعلة الروحية المتقدة من شعر صاحبنا ألسنة مختلفة ، وينابيع شتى ، تتدفق بكثير من الصور الرائعة ، والألوان البديعة الشائقة ، وهو هو فى كل لسان وينبوع ،

وفى كل صورة ولون ، الشاعر الحى المتحرك ، والفنان الطائر المتجول ، ـ نظم فى مصر وشؤونها ، فكان قلبها الجريح، وأملها المعذب :

يا موطناً كلُّ مافيه يؤرقنى وكل ما فيه أتراحى وآلامى

هذه إحدى صرخاته ، يبعثها فى ألم ولوعة ، لتسمعها مصر فتعرفه ، وتعرف أن ذلك الجرح النعار الذى تحمله بين جنبيها قد استحال شعراً حاراً ، يخرج ملتهباً من فم أحد أبنائها الأبرار ، وشعرائها الأجلاء .

نظر صاحبنا الى التحزب السياسى يقطع أوصال الوحدة القومية فى مصر ، ويقضى على تلك الآمال الحلوة التى هى عصارة الدماء الزكية ، وماء الشهداء والضحايا الذين بذلوا أرواحهم الكريمة فى سبيل مصر ، فانطلق وجدانه الصافى يتموّج شعراً فى هذه الصورة الشديدة التوجع :

لوكان فينا رجالٌ تعشقوا القوميهْ
لما نُكبنا مراراً بشهوة الحزبيهْ

ماهذه الضوضاء ؟ أين العقول الرجيحهْ ؟!

تخاصم الابناء والأم ثكلى جريحة !

انا بعصر جديد على التعاون يُبنى
فكيف نرجو سوانا ومَنشأ الهدم منا ؟!

رمى شاعرنا ببصره الى الشرق العربى ، فرآه فى مصابه الكبير ، ونكبته الأليمة . ورأى أممه فى تخاذل وانحلال ، فما استطاع صبراً على هذه الحال ، وإذا بصوت رنان يخرج من أعماق قلبه الشديد الاحساس قائلا :

مُصابكمو كلكم واحدٌ
وخطبُ الصليب كخطب الهلالِ

ذلك هو نفير الجامعة الشرقية التى تفصل بين أديان الأمم العربية ودنياها ، والتى لا يعرف المصلحون من الساسة وقادة الأفكار سواها .

أقبل الدكتور أبو شادى على الناس يختبر نفوسهم ، وينقد أخلاقهم ، وهو تلك النفس الفاضلة المولعة بالنور والجمال ، فاذا به يرى صوراً بشعة من الظلمة والدمامة ، ويصطدم بمجموعة بغيضة من اللؤم والغدر ، وما اليهما من

مساوىء الاخلاق ، وقد اهتدى بوحى من فطرته السليمة ، وثقافته العالية . الى أن رذيلة اللؤم هى الأصل فى كل هذه العيوب والمثالب فقال :

خبرتُ طباعَ الناس عمراً فلم أجد
أحط ولا أغبى من اللؤم فى الناس

يعرف صديقنا الدكتور أن فى شعره ما لا يسوغ فى بعض الأذواق . ولا يستقر فى بعض النفوس ، ولقد قدّمتُ لكم انه من أمره فى فتنة فنية غالبة ، يستعذب فى سبيلها كل شيء ، ويحلها من نفسه فوق كل شيء . فاسمعوا ماذا يقول للذين يتعامون عن هذه الفتنة ، ويلومونه فى هذه الحال :

كن أنت نفسى ، واقترنْ بعواطفى
تجد المعيبَ — لدىّ — غيرَ معيب
شعرى — الذى تأباه — أنفَسُ مهجتى
وكفاه أن يحيا بنفسِ أديب
ما كان هذا الشعر من لغة الورى
لكنه قلبى ، وروحُ حبيبى !

أحب أن أخلي بينكم وبين هذه الصورة قليلا من الوقت أو كثيراً لتأخذ مستقرها العميق فى أذهانكم ، ولتناجيكم بصوتها السحرى مفسرة لكم تلك اللغة التى ابتدعها الشاعر لنفسه وللفن الشعرى معاً . وأية فتنة هى أشد من هذه ؟

قال الشاعر من (ذكريات الحب الاول) فى معنى السلوان :

مالى أروم من الجمال عزائى فأعود مغموراً بروح شقائى؟
هيهات لى السلوان ، ان تعلتى ألمى ، وانّ تصبرى برحائى

فى أية لغة غير لغة الدكتور أبى شادى يقال مثل هذا ؟ كيف يسلو صديقنا الدكتور ، وماذا يريد بالسلوان ، وهو يتعزّى بألمه ، ويرى فى عذاب الحب ، ولوعة الذكرى ، معنى من الصبر ، ونوعاً من الراحة ؟ ! الألم ، والعذاب ، واللوعة عزاء وراحة ونعمة ، آمنتُ بالله !

ما كان هذا الشعر من لغة الورى لكنه قلبى ، وروحُ حبيبى !

انظروا الى قوله من قطعة فى (الاوتار) :

ترشفت هذا الحسن من كل نفحة حبانى بها ، والحسن شتى مناهله

أى حسن هذا الذى يترشفه الشاعر الذى يكاد يقتله الظمأ الى كل حسن فى هـذا العالم وما وراءه من عوالم الحسـن الحقيق ، والجمال الصادق الصحيح ؟ ! هل علمتم أن الحسن والجمال ، أو أن شيئاً آخر من هذا النوع ، يأخذ حكم الشراب الذى يترشفه المرء أو يتجرعه ؟ ! ثم ماهو ذلك الاناء العجيب الذى يحمل هذا الشراب ، ويشتمل عليه ؟! يقول الشاعر انه نفحة الحسن ذاته ، ويزيدنا من إبداعه هذا فيعطى هذه النفحة صورة المنهل ، ويقول لنا وهو مسترسل فى افتنانه إن للحسن مناهل أخرى كثيرة غير هذه النفحات التى تنبعث الى نفسه الرقيقة من جنانه الفيحاء ، ورياضه الأريضة ، فما رأيكم فى كل هذا ؟ وهل تظنون ان الشاعر الهائم يسخر بعقولنا ويعبث بأفهامنا وألبابنا ؟ لاتظلموه ، فانه يتكلم بلغة الفن الساحر ، ويناجى الأرواح الشـفافة والنفوس الصافيـة بشعر التصوف .

من ألسنة هـذه الشعلة التى طالع الدكتور بها علينـا فى ظلمات هذه الحياة الباردة صورة فنية لاذعة ، اسمها (اللهيب المقدس) وهذه جذوة منها :

قد رشفنا مُنى الحياة بثغر وارتوينا من اللهيب المقدسْ
تتلاقى الشفاه، وهى ظماء ثم تظمى على ارتواء، وتنعسْ
وتطيل اللقاء، وهى سواءٍ عن حياة بوجدها تتنفسْ

حتى مُنى الحياة فى لغة الشاعر وفنه مما يرشف، وحتى اللهيب عنده مما ينقع الصدى، ويطفىء الغليل، وهو إنما يتميز بهذا لأنه لهيب مقدس، فمن يستطيع إذاً أن ينكر عليه أنه ارتوى من هذا اللهيب الذى يراه هو ـ ويجب أن نراه نحن أيضاً ـ فيضاً من الكوثر؟! هذه صورة، وأخرى أن الشفاه تتلاقى وهى ظمأى فترتوى، ثم تظمأ، فتذبل أو تنعس، أوهى تسهو عن تلك الحياة التى تنطق بوجدها، وتتنفس عن ألمها!

صورة طويلة عريضة، كان للدكتور مندوحة عنها، لو أنه جرى على الشائع المألوف من الصور الشعرية فى هذا الباب؛ ولكنه لا يريد إلا التجديد والابداع. فهو معذب فى تصوراته، معذب فى خواطره وأفكاره، معذب فى كل شىء وفى كل حالة، ولولا أن للعذاب عنده معنى آخر غير معناه

المعروف لنا ، وطعماً هو غير هذا الطعم الذى جربناه نحن وألفناه لرثينا له ، وأشفقنا عليه كل الاشفاق ، وأى نعيم هو أوفر من ذلك النعيم الذى يجده شاعرنا الكريم فى عذابه هذا ، وهو الذى يقول فى هذه القطعة ، أو الجذوة :

قبلاتٌ نظمتها للأغانى رُبَّ سحرٍ لسحرها يتلمسْ

بل ماأشدَّه اغتباطاً ، وأكثره عُجباً إذ يقولُ :

(مِنْ جَنى ثغرها قبستُ نظيمى)

انه ليعود الى اللهيب المقدس ، ومايفيضه من حياة وقوة على نفسه المحترقة التى تتألم لمصابها ، فينظر الينا مستخفاً ، ويغنى فى حنان ورقة :

ربَّ شدو بها أطال حياتى فحياتى من اللهيب المقدسْ

الدكتور زكى أبو شادى روح فنية سابحة فى فضاء غير محدود من محاسن الفن ، ومفاتن الحياة ، وهذه المحاسن والمفاتن هى التى تلهمه تلك المعانى الدقيقة التى نراها فى شعره وتوحى اليه هذه الصور التى لم يألفها العقل الأدبى فيما ألف من ألوان الشعر وضروبه ، وهذه نغمة غنائية من نغمات تلك الروح الراقصة فى عالمها الجميل :

عُودِى إلى ظلِّ المساء ، فنلتقى
رُوحين للدُّنيا بغير رقيبِ
نمشى على أرضٍ من الأحلام لم
تُبْسَطْ لغير الحسن والتشبيبِ

إن فى هذين البيتين لمجالاً واسعاً للحيرة ، وانهما ليثيران فى النفس ذكرى حادثة الاسراء ، وكيف اختلف الأقدمون فيها ، فمن قائل إن الاسراء كان بالروح وحدها ، ومن قائل انه كان بالجسم والروح معاً :

عُودى إلى ظِلِّ المساء ، فنلتقى
رُوحين للدُّنيا بغير رقيبِ

هكذا يقول الشاعر فى البيت الأول ، وهو لو كان يتكلم بلغة الناس لفهمنا من قوله (فنلتقى روحين) أن هذا الالتقاء روحى محض ، ولـكان لنا من البيت الثانى شاهد على ذلك ، فهو يقول فيه :

نمشى على أرضٍ من الأحلام لم
تُبسط لغير الحسنِ والتشبيبِ

وموضع الحجة على هذا الوجه قوله (نمشى على أرضٍ من الأحلام) على أنّ فى هذه (الأحلام) صورة أخرى توهم أن الشاعر والتى يناجيها إنما يلتقيان بِطَيفَيْهِمَا ، فعلى الوجه المتقدم يكون الشأن بصددِ ما يقول قيس بن ذريح فى لبنى:

فان تَكُ لبنى قد أتى دونَ قُربها
حِجابٌ منيعٌ ، ما إليه سبيلُ
فإن نسيم الجو يجمع بيننـا
ونبصر قرنَ الشمس حين تزولُ
وأرواحنا إن ضمنا الليلُ تلتقى
ونَعـلمُ أنا بالنهـار نَقيلُ
وتجمعنا الأرضُ القرار وفوقنا
سماء نرى فيها النجوم تجولُ

وعلى الصورة الثانية تكون أرض الأحلام فى قول الشاعر هى (وادى الكرى) فى قول ابن هانىء :

عيناكِ أم مغناكِ موعدنا ، وفى
وادِى الكرى ألقاكِ أم واديكِ ؟!

كل هذا وهمٌ في وهمٍ ، وتأويلٌ يقع بين بين . فليس للروح والأحلام عند الشاعر ما لهما عندنا من الوصف ، والحقُّ أننا في حيرة شديدة من أمر هذين البيتين . وهذه آية كبرى من آيات ذلك السحر البابلي - إذا شاء الدكتور - أو المصري الفرعوني ، إذا أحب . ذلك السحر العظيم الذي سلطه على عقولنا في هذا النوع من شعره !

للدكتور قصيدة في (الأطياف) هذا شيء منها :

تمرُّ أماميَ الأطيافُ سكرَى
وبينَ جموعها مَرَّ المهاتُ
لحنّ إليهِ قلبٌ لي عليلٌ
ولكنْ جاذبتْ قلبي الحياةُ
وقالت : إنْ عشقتَ ، كما علمنا
فإنَّ الموتَ يأباه الهواةُ
وإنْ الحبَّ سحرٌ عبقريٌّ
وطوعُ العبقريِّ المعجزاتُ
تمر أماميَ الأطيافُ لكنْ
مِن الأطيافِ مَنْ غابوا وماتوا

وأخشى بينها طيفى ، فإنى
تحطمنى الشجونُ العاصفاتُ
أُصَبِّرُ مهجتى ، وجراحُ نفسى
بآلامى الدفينـــةِ هاتفاتُ
وأُصغى للحياةِ بلا شكاة وكم للنفس فى صمتى شكاةُ
وماشاق الممات القلبَ الا وفى معناه دينٌ أو صلاةُ

ومن قول الدكتور فى هذه القصيدة :

وتضحك فتنتى وكأنَّ حظى
مِن الحسن القطيعةُ والشماتُ
اذا غُبن الهوى ، فالصبر موتٌ
وهل تنفى المماتَ الفلسفاتُ ؟

ما أكثر ماتثيره هـذه الصورة الوجدانيـة البارعة فى النفس من الأخيلة والمعـانى ، وما أحسنه منظراً وأبدعه مرأى أن تطالعك الأطياف من خيال الشاعر أسراباً شتى ، وتمر بك وهى سكرى ، ولـكن مهلاً فهذا غول الموت يتخطر بينها ، وهو أشد مايكون صحواً على كثرة ماشرب من أطماع

النفوس وآمالها ، وما هـذه الأطماع والآمال الا نشوات الحياة الطامحة ، أو ماينشيء هذه النشوات ويبعثها !

يحنّ قلب الشاعر الى الموت ليستريح من علته ، فتجاذبه الحياةُ بقوة وعنف وتصيح به : كيف تريد الموت وأنت تعرف الحب ؟ وهل الحب يا أبا شادى الا ذلك السحر العجيب الذى يصنع المعجزات ، ويتغلب على كل شىء فى هذه الحيـاة ؟

يعود الشاعر بعد ذلك فيخشى أن يمر طيفه بين أطياف الموتى ، ثم يسهب فى شكوى الحياة ، ويقول إنه يكتم آلامه ولـكن جراحه تتكلم ، وان فى صمته العميق ضجة كبرى من الشكوى ، وانه لايحب الموت لذاته ، وانما يحبه لما وراءه من جمال الحياة الخالدة ، فهو اذاً فى مكانه من دولة الحب ، وعالم الجمال ، بل هو يريد المثلَ الأعلى ، والغايةَ القصوى ، ومن أجل هذا (تضحك فتنته) فلندعها تضحك ملياً ، ولننظر الى أى مكان يبلغ بنا العجبُ من هذه الفتنة الضاحكة !

قطعة أخرى للشاعر :

قُبَرِ الحبُّ بصدرى، وحياتى　　لم تكن إلا مماتًا فى مماتِ
أنتِ يامعبودتى أنتِ أمامى　　أكذا السّخر بحبى وهُيامى؟

نبئينى هل هو البعث الأكيدْ
هل أرجِّى منك نوراً لن يبيدْ
أنت يامن صغتِ أكواناً عديدهْ
أتصدِّين مُنى نفس وحيدهْ ؟!
هل لها إلاكِ دين أووطن　　أولها إلاك رب يؤتمن ؟!
ربَّ وصل هو هجر فى احتيال
ربّ صدق هو وهم وخيال
نبئينى ، واغفرى صمتى الطويل
فى سكونٍ مِلؤه الحلم الجميل
فى ذهول بين ألوان الجنون
أتملى النور والحسن الحنون
فى عباداتٍ تولت بى سراعا
وسقتنى خمرةَ الخلد ابتداعا

هذه الوقفة طالت ، فى خشوع　　وفؤادى مثل عينى فى دموع

وقفةٌ كانت سجودًا مِن شعوري
نظرةٌ كانت خشوعًا في ضميري

عادت فتنة الشاعر فعبست وراحت تئن وتتوجع ، بعد ذلك الضحك الذي تجاوبت أصداؤه في مملكة السحر ، وعالم الجمال ، ومافي ذلك من عجب فهي هنا في حرم العبادة ، ومحراب الصلاة ، هي هنا في موقف النسك والخشوع ، ومقام السجود والركوع ، انها لمن صلوات المؤمنين ، وعبادات الأئمة الصالحين

أنتِ يامن صغتِ أكواناً عديدة
أتَصُدِّين مُنىَ نفسٍ وحيدهْ ؟!

هذا مايقوله الشاعر في مناجاة معبودته ، فهو يقدس فيها قدرتها على خلق الأكوان وإنشائها ، ثم يسألها في تلطف : مابالها تضيق بآمال نفسه فتصدّها عن ملكوتها ، وتدع هذه النفس الواحدة في عذابها ومحنتها ؟!

ربّ وصلٍ هو هجرٌ في احتيال ربّ صدق هو وهم وخيال

إن هذا لمن الصور الشعرية الرائعة ، والقطعة بجملتها

من الشعر الحي البعيد الأثر فى النفوس ، ونظرة الى السكون ، والذهول ، وألوان الجنون ، والحسن الحنون ، ترينا منزلة هذا الكلام من الشعر .

قال الشاعر من قصيدة جعل اسمها (شراب الفنان) :

أرْغَتْ كعابسةِ الغيوم هُنيهةً
ثم استتبَّ لها هوى ومرادُ
فاذا الحياةُ لآلىء فى تاجها
نشتاقها ، واذا الممات بعادُ
هاتِ اسقنى هذى الحياةَ بما وعتْ
أيكون من دون الحياة مَعادُ ؟
ما العمرُ الا ما تذوّقه الفتى
ان الحياة مرارةٌ وشهادُ

وَصفٌ بارعٌ ، وحكمة عالية ، يظهر بينهما الشاعر فى تاج بديع من تيجان هذا الفن الذى أخذ بحظٍّ كبير من شرابه ، فاذا هو ثملُ الألفاظ ، مرحُ المعانى .

وقال فى الذكرى التاسعة لفقيد الفن الغنائى الشيخ سيد درويش من

قصيدة عنوانها (الفن الشهيد) :

ذِكرَى تَجلُّ على مَدى الأعوام
كالفن في ملكوته المترامى
الميِّتُ الحىُّ الذى من وحيه
لغةُ القلوب ، ونشوة الأحلام
شِعرُ الحياةِ وَوَقعُها ما أبدعت
هذى النماذجُ من جمالٍ سام

ملكوت الفن ، والميت الحى ، ولغة القلوب ، ونشوة الأحلام ، وشعر الحياة ، والنماذج التى تبدع الجمال السامى ، كل أولئك من غُرر الشعر ، وأوضاح الكلام . وقال فى معنى الجحود :

وكم مُغرقٍ خصنى بالمديح
تَخَيَّلتُهُ مثلَ هاجٍ يُغالى
فيا مادحى ، لا تكن مسرفاً
فرُبَّ مديح كَرَشْقِ النِّبال
ورفقاً بقلب بَرَتْهُ الهمومُ
وما زال فى خفقهِ لا يُبالى

يكافحُ حتى الشعاع الأخير
وَيُخذَلُ ما بين صحبٍ وآل

فى هذه الأبيات من أدب النفس ، ويقظة الرأى ، صورة الانسان الفاضل . ومثال الفنان الكبير النفس ، الصادق العزيمة ، وإن ذلك لقَبَسٌ من خُلق شاعرنا الكريم ، وشعاع من مروءته .

قال الشاعر فى معنى قوله (صائد الخيال) :

وَقفتُ على ضفاف اليمّ أُلقى
شباكى طالباً أقصى المُحال
وما بحرُ الحياةِ بِمُستَعِزٍّ
على من كان صيادَ الخيال
فمالى قد عَثرتُ ، وَضعت منى
وخانتنى الشباكُ ، وساء حالى ؟

موقفٌ مظلمٌ للشاعر الكريم ، فى جو مشرق من الفن ، ومقام حيرة ، فى معرض سَداد ورشد . مسكين حتى الخيال يتعذر صيده عليه ، إنه ليقف على ضفاف أوقيانوس الحياة يُلقى شباكه فيعثر ، وتضيع طُلبَتُه ، وتخونه الشباك ،

ويسوء حاله ، ولكن ماذا يريد وهو يطلب أقصى المحال ؟ ! ليته طلب أدناه .

قال الدكتور فى (عاصفة الربيع) :

عصفَ الجوُّ بلفحٍ من ضرامِ
وعجاجٍ كشقائى فى غرامى
أتُراه من زفيرٍ وأنينْ
سوف يمضى كعذاب العاشقين ؟
ضنت الشمسُ وكم للشمس بخل
بينما يستبعد الحرمانَ عقل
مَن ترى يرعى هواها ومناها
وهى تفنى فى تناسى مَن براها ؟
أكذا فى النور يغشانا الظلامْ
ونعانى فى حمى الطب السقامْ ؟
أىّ معنى لربيع فيــه نشقى
ونذوق الحب ارهاقاً ورقّا ؟
يا حياتى كيف ترضين البعادْ
فى أوان الحب ، حتى للجهاد ؟

إبسمى يا ربتى ، يبسم وجودْ
كل ما فيه جحودٌ فى جحودْ
ما زفير النار فى هذى الجنانْ
وبها الاحسان من طبع الحسانْ
إنهـا سخر من الدنيـا بقلبى
بعـد ما عذبته من أجل حبى

لهذه الصورة الفلسفية الجميلة زلزلة عنيفة فى النفس ، فهى ثورة كبرى من الشاعر على مملكة الطبيعة التى لا يرضيه إلا أن تكون كقطعة فنية من رائع الشعر ، تتّسق فى أقوم نظام ، وتنسجم أيما انسجام ، وهى إن لم تكن كذلك ، كانت عارية عن الحسن خالية من المعنى :

أى معنى لربيع فيـــه نشقى
ونذوق الحب إرهاقاً ورقاً ؟

وليس هذا فحسب ، فهى إن لم تكن كما يريد صديقنـا الدكتور ابو شادى كان ذلك نوعاً من السخرية :

انهـا سخرٌ من الدنيا بقلبى
بعـــد ما عذبتهِ من أجل حبى

يحق لفتنة الدكتور أن تضحك مرة أخرى ، فانها ما برحت تستدرجه حتى قذفت به الى السماء !

ومن قول شاعرنا فى الحزبية ، وهو من الحكم الوطنية الغالية :

أرى الحقَّ فى الدنيا مُشاعاً موزَّعاً
فكيف أقيس الحق بالبغض والحب ؟
وأى جمـــال للتغـــالى اذا قضى
على الود بين الناس ، أو أمل الشعب ؟
هزيمـــةُ نفسى فى مجـــال محبـــة
أحبُّ الى نفسى من النصر فى الحرب

وقال يصف مصر :

بلدٌ تسود به السخافة وحدهـــا
ويمجَّـد المفتون بالتخريب !

يقول الشاعر هذا البيت فى مصر ، وهو الذى يحمل لها أصدق الحب ، وأصفى الولاء ، فهو من قبيـل قول جميـل فى بثينة :

رمى الله فى عينىْ بثينة بالقذى
وفى الغُرّ من أنيابها بالقوادحِ

إنها لغضبة ضاحكة من فتنته ، وهذا ما يقوله فى قصيدته (الضاحك الباكى) وهو أحسن ماقيل فى باب الشعر الوطنى :

أبكى على وطنى العانى ، وإن سخرت
نفسى بنفسى ، فانى الضاحكُ الباكى
ما للضبابِ طغى ، والشمسُ مشرقةٌ
وما لأزهاره فى سجن أشواك ؟
أيعدمُ الروضُ جناناً يشذّبهُ
فى عالمٍ بجمال العيشِ ضحاك ؟
أم يعدمُ النورُ مَجلى منه نرقبه
أم للضباب مَعانٍ فوق إدراكى ؟

وانه ليرى جنون الزعامات السياسية فى مصر ، ويعرف مايجلبه هذا الجنون على هذه الامة من أنواع الشر وضروب البلاء ، فيقول :

داء الزعامات ، كم حُرٌّ وكم عَلَمٍ
بعد الشموخِ يعانى ذُلَّ اطراقِ ؟ !

ومن بدائع شعره قوله فى صديقيه (المجهر والهيكل العظمى):

يا مجهرى أنت عونى ... اذا جفانى لِداتى
اليكَ مَلجأُ همى ... فأنت قاضى القضاة
لم تَعرف ِالكذبَ يوماً ... ولا حديثَ الرواة
اذا حكمتَ ، فحكمٌ ... مِن عالم الغيبِ آت

* * *

يا (هيكلى) أنت خلّى ... بل أنت واللهِ ذاتى
بعثتَ حياً وميتاً ... وفى المماتِ حياتى
يخالك الناسُ عظماً ... معلقاً كالجناة
وأنتَ أنتَ نجِيّ ... على السنينِ العواتى
ساجلتَنِي كلَّ رأْىٍ ... عن غامضِ الفلسفات
فكنتُ مثلَ (المعرى) ... وكنتَ (داعى الدُّعاة)

ولصديقنا الدكتور أغنية بديعة ، سماها (ثأر الحب)

فليتصور كل أديب ماذا يقول أى شاعرٍ اذا تناول غرضاً كهذا : ان للحب الموتور ثأراً ما هو بتاركه ، وانه لثأر هائل عظيم ، قد يدفع أحياناً كثيرة الى إراقة الدم ، وإسالة المهجات والنفوس ؛ فاستعدوا إذاً لأمر عظيم !

إهدَأُوا أيها الاصدقاء فانّ شاعر الحبّ والجمال يعرف كيف يأخذ ثأره ، واسمعوا ما يقول :

لا تخافى الثأرَ من نفسى الحبيبه
انه ثأرُ عبـاداتٍ عجيبه
ثأرُ نفسٍ تتفانى فى هواكِ
كالأغانى قـد حوتْهـا شفتاكِ
أتناهَى فيك رُوحاً وكيانا
كتناهى الظلِّ فى النورِ افتتانا
انمـا رُوحى وجسمى توأمانِ
يُحرمان الحظَّ أو لا يُحرمانِ
فدعينى فى عباداتِ الجمـالِ
أجمعُ الحسَّ وأطيافَ الخيالِ

فاذا بى فاقدٌ كلَّ وجودى

لكِ يا مرآةَ أحلامِ الوجودِ

لستُ مَن يحيا لِلونٍ من هيامِ

انما أحيا وأفنى فى الغرامِ

أشربُ الكأسَ ولا أنسى الثُّمالهْ

كالندى إذ يرشفُ الصبح جمالهْ

كيف أرضى رشفةً منك ، وأنسى

أنك الكأسُ التى تفترُّ أنسًا ؟ !

علمينى رَشْفَها حتى النهايهْ

حبذا هذا التغالى فى الغوايهْ

هذا هو ثأر الحب عند شاعرنا الكريم : عبادات روحية خالصة ، وقرابين قدسية طاهرة ! ولو أردنا أن نستقصى ما لصديقنا الدكتور فى (ديوان الشعلة) من البدائع الشعرية لتباعدت بنا الغاية ، وتطاول المدى . وجملة القول فيه انه شاعرٌ حيُّ العاطفة ، دقيق الاحساس ، متقد الذكاء ، وقد طلع على العالم الأدبى بديوانه هذا وهو فى الأربعين من سنى حياته

المباركة ، ونحن نرجو أن يتبع هذا الديوان النفيس كثيرٌ من آثاره الفنية الفريدة . وان خير ما نصف به أشعاره فى ختام هذا المقال قوله فى الخطرة الأخيرة من كتابه :

حوَتْ صُوَراً وألواناً تناهتْ
بأطياف التخيُّـــلِ والمعانى
فتنسى أو ترى دنيـاكَ ، لـكنْ
تراها بالعواطفِ والجنَـــانِ
وتعرف كنهَها ، وكأنَّ عمراً
جديداً ما تطالع من بيــــانى
وتعتنق التفـــاؤلَ دينَ حبٍّ
يصادم كلَّ أحداثِ الزمانِ

احمد محرم

نقد وملاحظات

(١)

ليس لمثلى أن يدّعى له مكانةً خاصةً بين الشعراء بله التحكم فى نقدهم وأقدارهم ، إذا جاز لأديب من الأدباء مثلُ هذا التحكم . . . . ولكنى أدّعى بحقٍ أهليتى ـ بعد درسى الطويل ـ لنقدشعر الدكتور أبوشادى الذى عُنيتُ بتذوّق أدبه منذ أكثر من عشر سنوات .

وإنى أشكر للاستاذ الصيرفى الفرصة الجميلة التى أتاحها لى للتعقيب على محاضرة شاعر مصر الكبير الاستاذ أحمد محرم حتى أقول كلمة تقدير فى شيخ شعرائنا المصريين الى جانب إنصاف شاعرنا المجدّد الدكتور أبو شادى .

إنَّ انصاف الشعراء المعاصرين بعضهم لبعض غيرُ مألوف ، حتى جاء أخيراً مجهود (جمعية أپولو) للتنويه بالمغمورين من الشعراء وللاشادة بأعمالهم فى مجلتها أمراً غريباً يكاد لا يُصدّق فى مثل بيئتنا ، وقد زاد من قيمته عنايةُ الجمعية باظهار

شواعرنا المتواريات كسهير قلماوى وجميلة العلايلى . والآن نرى ظاهرةً جديدةً طيبةً فى التجاوب بين شيوخ شعرائنا وشبابهم ، وهذه الظاهرة من علامات الصحة المنشودة فى أدبنا الذى ضاع الكثيرُ منه سابقاً فى مخاصماتٍ طائشةٍ لاجدوى منها للأدب .

إن محاضرة شاعرنا الكبير الأستاذ محرم مثالٌ عالٍ للروح النبيل الذى كثيراً ماحلم به الأدباء من التعاطف والتجاوب . هى صورةٌ صادقةٌ لنظرات وعواطف شاعر متفوِّق نحو زميل له يخالفه فى مذهبه ويجانسه فى نبوغه ، وهى مثالٌ للانصاف الذى لايتعارض واحتفاظ كلّ شاعر بشخصيته وآرائه الخاصة .

يقول الأستاذالمحاضر : « إنّ الدكتور أبا شادى حركة أدبية شديدة اليقظة ، دائمة النشاط ، تشغل قسماً كبيراً فى موسوعاتنا الفكرية ، وتحتل منطقة ممتازة من مناطق حياتنا العقلية ، فنحن حين نكبر هذه الحركة أو نشيد بذكرها ، لانفعل شيئاً من ذلك تطوعاً أو مجاملةً ، ولكنا نفعله

ونفوسنا مأخوذة بقوة قاهرة ، وسلطان كبير » . . . . وقد أصاب أستاذنا محرم فى هذا الحكم على صديقه الشاعر ، بل هو حكمٌ شائعٌ مردَّدٌ ، ولعلَّ الدكتور أبو شادى نفسه يشعر بقوة نفوذه الأدبى بل أجزم أنه يشعر به لانك تلمح فى شعره الحسرة اللاذعة من وراء هذا الشعور . . . انه يعرف مواهبه وقوته الأدبية ، ويعرف نفوذه الفكرى والعلمى فى شتى النواحى ، وهو يعمل وينجب بلا انقطاع مدفوعاً بوحى قاهر لا يستطيع مغالبته ، ومع كل هذا يشعر بعدم الرضى عن جميع أعماله ، وبالسخط على البيئة التى لا تساعده على استغلال مواهبه الاستغلالَ الأتمّ ، بل تدعه يفنى بين الحاجة والعذاب والكفاح ، متفرجةً لاهيةً أو متبرّعةً بأمداح لاطائل من ورائها ، بينما كلُّ مايعنيه بلوغُ المثل الاعلى الذى يسعى اليه ! ترى هذا الألم المحرقَ واضحاً لاذعاً فى قصيدته « الجحود » ـ ص ٥٢ من ديوان (الشعلة) ـ وهى من أقوى شعره ، وفيها يقول :

وكمْ مُغرقٍ خصّنى بالمديح
تخيَّلتهُ مثلَ هاجٍ يغالى

أقضى الحياةَ على غُصَّةٍ
وأُسقَى الهمومَ على أى حال
ومَن لم يُطق أن يبلَّ الصدى
فهيهات يغنى بنهرٍ زلال
مرضتُ وقد بخلوا بالدواء
وجادوا بأوسمةٍ للمعالى !
وماذا انتفاعى بأمداحهم
إذا مُتُّ من حُرقةٍ واشتعال ؟!

فهذه الأبيات النارية زفرات مشتعلة من شاعر متفوِّق ، بل من قوة أدبية كبرى لم تعرف بعدُ الدولةُ ولا الشعبُ استغلالها بحكمة وإنصاف، فذهبت معظم جهودها سدى، وبقيت طاقتها مقبورة ومازالت مقبورة ، وصاحب هذه الطاقة يشعر بها فى ألم مُمضٍّ، ويستثيره المثل الأعلى الذى يتطلع اليه فيعانى العذاب بين مايعانيه من القيود والجحود من ناحية وبين توثبه الذى لايكلّ من ناحية أخرى ، والخاصة يعجبون به والأصدقاء يصفقون له ، ولكن كل هذا الاعجاب وذلك الاستحسان

لا ينهض بأعماله الثقافية الجليلة خطوة واحـدة إلى الأمام، لأننا اعتدنا الأقوال والتهليل ولم نتعود بعد التساند العملى المفيد. ازاء هـذا الشعور الأليم يقول أبو شادى فى ديوانه (الشعلة) من قصيدته « موت وحياة » - ص ٢٤ :

دفنتُ أسيفاً عزمتى ومواهبى
لدن عُدَّ من ذنبى همومى وأعمالى
وحيا أخلائى جهودى وما دروْا
جهودى التى ماتت لحزنى وإقلالى
فيا موجُ متْ حولى فموتك راحةٌ
وموتك مرآة لموتى وإذلالى!

وفى الحق إن الدكتور أبو شادى ظاهرة منقطعة النظير فى الثقافة العربية : فهو قوة مبتكرة مدهشة فى نواح شتى من الأدب والعلم والفن، وآثاره بعيدة المدى فى كل مجال وَجه اليه نشاطه، وقد انتفع بها الكثيرون انتفاعاً عظيماً، ولكنه انتفاع لقومه دون ما يشتهى هو أن يكون. ومن أجل هـذا واجه أقسى حملات الحسد عليه من المغرضين والأنانيين،

وهى حملات لاتكتفى بالأقوال بل بين أسلحتها الدسيسة والعرقلة وشر ضروب الاساءة ! وتجد صدى كل هذا بارزاً لاخفاً فى شعر أبو شادى ، فهو شاعر إنسانى صافى النفس لايملك أكثر من البثّ لآلامه إذا ملك غيره أن يقابل الأذى بالأذى ....

زكى أبو شادى الذى يقول فيه الأستاذ خليل مطران :

أسمحُ فادى وطنٍ بنفسه وكلّه
يفوق حبُّه له عبادةَ المؤلّهِ

والذى يكاد لايطرق النوم أجفانَه ، مُسْدِياً مُنجباً لخير الأدب والعلم والفنّ ولخير الوطن والانسانية ، والذى يقول فيه الشاعر الفنان الدكتور ابراهيم ناجى (ص١٣٧) :

« ... هو شعلةٌ حقّاً ، هو نورٌ ونارٌ ، هو قَبَسٌ حَىٌّ ، هو شعاعٌ طوّافٌ متميّزٌ بالقلق ، منفردٌ بالهداية ، ضاربٌ فى مجاهل الليل ، مترامٍ فوق عبابٍ جيَّاشٍ مترامٍ ! هو أَلَقٌ يقتحم الظلمةَ ويبدّدها ويغشاها ، ولكنه يرهب ا افها ويخشاها ، هو عينٌ جوّاسةٌ مجهرةٌ ، ترمى العالم

بالنظرة الرحيمة الواسعة ، ثم تعود مغمضة جفنيها على دمعة تترقرق فيها ، وحسرة تذوب فى محاجرها ، هو فيضٌ من سلام وحنان وصفح ، ينحدر من نبع قوىٍّ صافٍ ، فيصطدم بالبغضاء والقسوة والغل . . . . » — مثل هذا الرجل النابغة العظيم ، بل هذا العبقرى الفذ فى هذا الوطن السىء الحظ ، يحارَب ثم يحارَب ثم يحارَب أضعاف ماينال من معاونة ضئيلة ، فيتفجر منه شعر الألم . . وكيفما كانت قيمة هذا الشعر من الوجهة الفنية فهو وصمة فى جبين الجيل ، وأين شكاوى حافظ ابراهيم على قلة ما أنتج من شكوى أبو شادى العامل المنجب الذى يخجلنا أيَّما اخجال بقصيدة « نشوة اليأس » — ص ٢٧ من ديوان (الشعلة) :

دعونى أناجى اليأسَ فى نشوةِ اليأسِ
ولا توهمونى أن حولىَ ما يُنسى
أعيش بأرضٍ للشياطين والأذى
تُصبِّح فى رجسٍ وتمسى على رجسِ

حرامٌ علينا تأملٌ في ربوعها
وفيها تجلّى مصرعُ الفكر والحسِّ
علامَ التمادى فى المنى حينما نرى
ضحايا المنى أضحوكةَ الحظ والبؤسِ ؟!
أنعلق بالآمال فى البلد الذى
يصول به مَنْ صال بالشرِّ والدسِّ ؟ !
خِفافٌ الى الافساد فى كل مطلب
ثِقالٌ على الاحسان ، حربٌ على النفسِ
يباهون بالايذاء حتى كأنما
يبزّون فى الهيجاء (عنترة العبسى) !
عجبتُ لشمسٍ أشرقتْ فى سمائهم
وقد خُلقوا حرباً على النور والشمسِ !

حقيقة إنها لفضيحة أدبية لجيلنا أن يعانى مثل أبوشادى مايعانيه من خذلان وجحود ومحاربة ، وما يتبع ذلك من عذاب وخصاصة وإرهاق لا يُحدّ . واذا كان شاعرنا قد خلد فى شعره تقديره لمن آزروه وأحبوه ، فهو الى جانب ذلك

فائض اللوعة والبثّ ازاء من حاربوه وتفننوا فى انتقاصه وإيذائه فأساءوا فى الوقت ذاته الى خير وطنهم، وسيبقى هذا الجانبُ من شعره كسُحبٍ كثيفةٍ سوداء فى سماء الأدب العصرى وفى سيرة أهليه .

قلت إن الدكتور أبو شادى ظاهرةٌ منقطعة النظير فى الثقافة العربية ، وهو بسبب ذلك يذوق الحنظل من يد البيئة الحسودة الجاحدة كما ذاقه من قبل بيننا الموسيقار الفنان المرحوم الشيخ سيد درويش ، فمات ونحن فى غفلة عنه ، فلم نعرف قيمته الحقيقية إلا بعد وفاته ، وفاتنا الانتفاع الوافى به . ولو أن الدولةَ أو الأمةَ عرفت كيف تشمل جهوده الرائعة برعايتها الصحيحة ، وصدّتْ عنه الفقر والحاجات الدنيوية المعاشية ، لكان لنا من آثار سيد درويش كنزٌ عظيمٌ للأغانى والموسيقى العربية . ولكن للأسف فقدنا الرجلَ ، وقُبرت مواهبه فى حياته ، ولم نغنم إلا القليل من آثاره . وانى أتمنى لشاعرنا العمرَ الطويلَ والجهود الموفَّقة فى النهاية ، ولكن أخشى أن المأساة تتكرر الآن نحو فنان

فى الذروة من فنه ، نحو شاعر عظيم يسحّ بالشعر الصادق ، وتأبى بيئته الغاشمة — أو أغرارها الآثمون — إلا صلبه وتعذيبه ! وقديماً قال أبو شادى :

دعنى أعشْ غيرَ معروفٍ ، فغايةُ ما
أجنيهِ بالذكرِ أعدائى وحُسَّادى !

زكى أبو شادى شاعرٌ فحلٌ مستوعبٌ للحياة ، دائم التطلع الى ماقبل الحياة والى ماوراء الحياة ! وإذا تأملت جميع دواوينه وجدت هذه الروح متمشيةً فيها ، لا تستطيع أن تخطىء معالمها ، ورأيته يفيض بالشعر المطبوع ، وكله من النسق العالى الممتاز ، فلا غرابة إذا ثار سخط الحاسدين والجاحدين فتفننوا فى محاولة انتقاصه والاساءة اليه ... وربما كان مُعيناً لهم ما تجده فى شاعرنا من الوداعة الحقة والتسامح المتناهى ، بل والمساعدة على الاصغار من نفسه بروح الصوفىّ المتجرّد ، فيطمع ذلك غير عارفيه فى التهجم على أدبه . . . وأنت إذْ تجالسه لا تشعر أن شيئاً من ذلك يهمه ، ولا أن الدهماء تعنيه بحال من الأحوال ، وإنما كل ما يعنيه أن لا يعاقَ بشتى العراقيل دون بلوغ المثل

الأعلى الذى يرمى اليه فى خدمة الثقافة الانسانية وفى التسامى بأدب أمته ، ومن هنا نشأت حسرتُه على جهوده المضيَّعة وعلى مواهبه المدفونة . ومع الفارق فى الاخلاق والطباع والاتجاهات ، يكاد يعانى أبو شادى من الجحود مثل ما كان يعانى الشاعر الفحل ابن الرومى فى عصره — ذلك لأن الشاعر المستوعب الشامل النظرات قليل الظهور بين جيل وآخر ، فهو لذلك عرضة للاعجاب به وللاستهجان فى آنٍ ، وعلى الأخصّ متى ظهر فى بيئة جامدة أَلِفَتْ لوناً واحداً من الأدب فلم تستطع هضم سواه ، وكرهت ما عداه وإن يكن لذيذاً فاخراً !

أقلب صفحات ديوان (الشعلة) فتكاد تستوقفنى كلُّ صفحة من صفحاته بما فيها من ألوان العواطف والخيال ، وبما فيها من رسالة روحية سامية للحقِّ والجمال . وتمر أمامى صورٌ شتى من النماذج لشعر أبى شادى — شعره فى صباه ، وشعره فى شبابه ، وشعره فى كهولته — فأجد فيها جميعاً روحَ الشاعر الانسانى المتصوف الحساس ، المفتون

بالحياة والجمال فتنة المستمتع والزاهد فى آنٍ ! هنا الشاعر الانسانى ، والشاعر القومى ، وشاعر الطبيعة ، وشاعر النسك ، والشاعر البوهيمى ، والشاعر الفيلسوف ، وشاعر العواطف الجامحة ، والشاعر السمح الوديع ، وشاعر التصوير ، والشاعر الغنائى ، والشاعر الدرامى — ذلك لانّ أبو شادى يرسل نفسه على سجيتها ، ويعتقد أن حرية التعبير النافذ مع الشخصية القوية والعواطف القوية هى أُسس الفن . وهو يهب نفسه للفن ويندمج فيه كل الاندماج بشعره ، فيخرج لنا ألواناً شتى من هذا الشعر هى فى الواقع ترجمة حياته بلسان عواطفه ، وهى صور التجاوب المتنوعة بينه وبين الحياة . هذا هو أبو شادى الشاعر الذى يُعدّ إكثارُه بمثابة إقلالٍ نسبى، نظراً لتفاعله الوجدانى المستمر ولشاعريته التى لاتهدأ . . . فهو ظاهرةٌ نادرةٌ فى الشعر العربى ، سيُعرف خطرُها الكامل فيما بعد ، ولن يضيرها بتاتاً ما يتناولها به الآن فقهاء النقاد المغرضين من المآخذ الواهية التى هى أبعد ما تكون عن تفهم روح الشعر وعن النقد الشعرى الصحيح .

ان هذه الصفحات المعدودة لن تكفى بحال لأى تعقيب يراد منه تحليل نفسية أبوشادى وشعره ومواهبه وجهوده الأدبية فى ربع قرن ، بل لا تكفى حتى للاشادة الواجبة بديوانه الأخير (الشعلة) وإن كان الاستاذ محرم قد وفّاه حقه من النقد . بيد أن لى بعض الملاحظات النقدية على هذا الديوان ، وقد لا يخلو سردها من فائدة :

(١) يرى الاستاذ محرم ان الدكتور أبوشادى يعرف للقديم حرمته « ويتأثر بما فيه من روعة ، وبما له من جلال ، ولكنه من فتنته الادبية التى استولت على عقله ونفسه ، وجرت فى عروقه مجرى الدم ، لا يكاد يقنع من هذه الصور الشعرية الا بالجديد المبتكر ، فهو مولع أبداً بهذا الجديد المبتكر ، يروّض نفسه عليه ويطالب به سواه » . ولكنى كنت أود لصديقنا الشاعر أن يبتعد كعادته عن الاساليب العربية العتيقة وأخصّ بالذكر قصيدته «الناسخ والمنسوخ» — ص ٩٨ — وإن كنت لا أنكر ما فيها من قوة العاطفة الجياشة ، ولكنى أوثر عليها ألف مرة قصيدته « الضاحك

الباكى » — ص ١٠٩ — التى نوّه بها الاستاذ محرم تنويهاً خاصاً . قد يدعو شعر الحماسة الى استعمال الالفاظ الضخمة الرنانة فى بعض المواقف ، ولكنى أومن بالسهولة فى التعبير وحدها فهى أبلغُ رسولٍ من رُسلِ العاطفة .

(٢) لعل صاحب (الشعلة) أكثر شعرائنا المعاصرين افتتاناً بالمرأة ، وقد كان له أثر محمود فى انشاء تقاليد جديدة فى الموضوعات والتعابير خاصة بها . وافتتانه بالمرأة ـ كيفما كان لونه ـ يعنى فى الواقع احترامه لها ، ومع هذا وجدته يسقط من ديوان (الشعلة) غير قليل من شعره الصريح الجميل فى المرأة . ولما كان شاعرنا معروفاً بجرأته وشجاعته الادبية فنحن لن نغفر له هذا الحذف ، ونرجو أن نرى ذلك الشعر مثبتاً فى ديوانه الآتى (أطياف الربيع) ، فحسب الشعر العربى مصاباً تفشى غزل المذكر فيه وما يصحب ذلك من الانحراف والتدلى فى الشعور ، ونحن الآن أحوج ما نكون الى مثل أبو شادى فى ذوقه الفطرى السليم وصراحته المهذبة ليصحّحَ بغزلياته الحلوة الممتعة المقاييسَ الفنية فى الشعر العربى الحديث

وليوجه الفنانين الى المرأة التوجيه الصحيح حتى يقدّر جمالها جسما وروحاً كما يجب أن يقدَّر.

(٣) فى ديوان (الشعلة) قَصصٌ رائع وصور ميثولوجية بديعة سيزداد الاعجاب بها كلما تثقفت البيئةُ، ولكن لماذا يملّ صديقنا الشاعر من التمهيد لكل منها بسطور شرحية قليلة حتى يتذوّقها ويستمتعُ بها جميع القراء كما يفعل الاستاذ العقاد نحو الغريب من شعره ؟

(٤) يؤثر الأستاذ محرم الأساليب الشعرية المألوفة على الاساليب الرمزية ، وانى أوافق الاستاذ محرم على ذلك ولكن فى حدود المناسبات ، بيد أنى أعدّ من الخسارة أن يتنحى الدكتور أبو شادى عن الاساليب الرمزية فى شعره بعد أن كان الرائد الموفّق فى هذا السبيل . ومَن منا ينسى الأوبرا البديعة (الآلهة) التى جمعت بين الثقافة العالية والمتعة الفنية ؟ ثم من منا ينسى الفرائد الرمزية الشائقة فى هذا الديوان وفى غيره ، مثل «اللهيب المقدس» و «الأطياف» و «اعتراف ابليس» و « تاج الشوك » ونحوها ؟

(٥) مما يؤثر للدكتور أبو شادى اقتراحه ومساعيه لاقتباس فرائد الموسيقى الأجنبية وتطبيق أغانٍ عربية جديدة عليها حباً فى تهذيب آذاننا ، حتى تألف هذه الموسيقى الأجنبية الرائعة فتتلاقح بها أذواقنا ، وحتى يؤدى ذلك تدريجياً إلى التطوّر فى الابداع الموسيقى العربى . وأراه فى ديوان (الشعلة) يرمى إلى حدث آخر ولكن فى الشعر ، إذ لا يزال مصراً على استغلال الأوزان العامية كالزجل ونحوه فى خدمة الشعر العربى ، آملا أن يقضى بذلك إلى حدٍّ كبير على الشعر العامى . وعندى أن هذا شبه محال ما لم يُنظم الزجل والموال العربى بأسلوب سهل جداً ، وما لم يتكاتف الشعراء على مؤازرة الدكتور أبو شادى فى ذلك ، وإلا ذهبت هذه الجهود سُدًى ، ولم تبق لها سوى قيمة تاريخية للمحاولات والنماذج الأولى .

وان خير ما أختم به هذا التعقيب فى هذا الموقف — موقف الاكبار لشاعرنا الموهوب وموقف التألم من غفلة بيئته — قول أبو شادى نفسه فى قصيدته « شتاء الحياة » (ص ٥٥ من ديوان الشعلة) :

تَشَجَّعْ أيها القلبُ المعنى
فقد بات الشتاءِ دُجًى بطول
تحفُّ بك العواصفُ وهى ثكلى
ويفجعك التناوحُ والعويل
تنوح على الفصول وقد توارثْ
بآلاءٍ لها تلك الفصول
كذلك أنت يا قلبي بعصفٍ
تزول الحادثات ولايزول
ومَن طُبِع الشجا فيه انطباعاً
أيغسله الترنُّمُ والهديل ؟
وقد غمر الأسى شتى المجالى
فغاب البِشْرُ والطبعُ الصقيل
كما هوتْ الثلوجُ على مُروج
فكفّنت الحزونةُ والسهول
تشيم بها الحياةَ ولاحياةٌ
وتلقى الدرَّ غايتهُ الوحول

كأنَّ الأرضَ عمَّرها نفاقٌ
وأفسد نورَها نورٌ دخيل
تشجَّعْ واحتملْ يا قلبُ فرداً
فليس يدوم للعانى خليل
وليس بمخضعٍ للدهرِ حصناً
سوى مَن لم يرُعه المستحيلُ !

محمد عبد الغفور

* * *

— ٢ —

لعلّ أجل غرض بلغه الشعر أثناء أداء رسالته فى عصر الحضارة العربية أنه استطاع أن ينتقل بنوع من عبادة الجمال إلى السواد ، فكان النشيد يلوح مع الزهر وذكريات ليالى الأنس فى كل مكان ، كأن رغبة المدنية فى الوصول إلى هذا المثل الأعلى من تذوّق الفن والاستمتاع به كانت الاكليلَ البديع الذى توّج به تاريخ العرب فى الأندلس وبغداد ؛ والتاريخ غيور على تقاليده وعناصر مجده فلم يترك للديمقراطية العصرية أن تأتى بشىء جديد فى هذا الصدد ، فانها بمقدار ما أباحت الحرية المطلقة للتذوّق فى الزى ووجوه التطرف احتفظت للشعر أن تطيب به كل نفس ، وأن تصل ثماره إلى تلك القلوب الكبيرة التى علقت رجاءها فى المستقبل على كل رسالة انسانية مجيدة . ونعتقد أن مصدر الترحيب والاحتفال بالشاعر إنما يرجع إلى أن كل مرحلة فى التاريخ منقطعة عن الشعر إنما هى مرحلة غامضة .

هذه عقيدتنا ، ولا أثر فى هذه العقيدة للريب ، وليست تقبل الجدل .

إنى كلما تصفحتُ ديوان شعر رائع تصورت أنى أطلّ على حديقة منسقة أو بهو أنيق أو كأنى أتأمل لوحةً لمصور أستاذ . . .

وهذا ما حدث لى فى الحقيقة عند ما جعلت أقلب صفحات الديوان الذى أخرجه للناس الشاعر الرقيق أحمد زكى أبو شادى باسم « الشعلة » ، وفى هذا الاسم شتى من معانى الجد وإشعاع الفن ، وهو يرمز الى تلك الزعامة التى يتولاها رسولٌ يتصف بالمحبة والاخلاص ويختار الشعر والغناء قرآنه .

وانك لتلحظ أول ما تتلو شعر أبى شادى أن قريحة الشاعر تريد أن تجود بأكثر مما قال ، وفى هذا السبق فى أشواط الابتكار وإفراغ المعانى الطريفة فى صيغ وتراكيب جديدة ذهب بالشعر العصرى إلى غايات بعيدة . وعادة الشعر العربى أن يقول تأثراته ولا يتكلف تصوير الحالة أو المنظر الا فى النادر ، وميزة شعر أبى شادى فى هذا الفن المقترن بالذوق أنه

مصوِّرٌ لا يرى أن يكون الجمال فى جزء من الصورة بل يجب أن يشيع فيها .

وتلحظ فى شعره ذلك التناسب العجيب بين الذوق والنفس والقريحة ، وقد أغناه ذوقه عن أن يدين فى عبادته للشعر لشىء من الأمثلة القديمة ، فهو من هذه الناحية خالقٌ .

أما النفس الشعرى الذى ساوى أبا شادى بعدة من شعراء المولدين فانه خلاصة ذلك التكوين الثقافى الجليل الذى يتمثل فى رجل عصرى يعيش بعواطفه ، ويرى فى كل ظاهرة من ظواهر الحياة ما يلائم تصوره ، فهو فى الحقيقة من عُبَّاد الفن العصريين .

وأنت إذا تمثلتَ الامواجَ الهادئة حين تمتدّ على الرمال فى الأصيل استطعتَ أن تتمثل قريحة أبى شادى التى تفيض بالشعر وبالمعرفة فى أمثلة شتى كلها يرجع إلى نزوع الشاعر إلى « الأيديال » ؟

عبد الحميد سالم

فهرس